

نمو الطفل العقلي وتكوين شخصيته

بقلم الدكتور يوسف مراد

(۱) أهمية دراسة الطفولة . (۲) النمو العقلي في الطفولة الأولى واكتساب اللغة . (۳) مراحل تطور الميل الجنسي . (۴) مراحل تكوين الشخصية .

۱ — أهمية دراسة الطفولة

لم تدرس الطفولة دراسة سيكولوجية منظمة إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكان الدافع الرئيسى إلى دراستها إنشاء نظم جديدة للتربية تحترم خصائص الطفولة وتهيئ لها الجو الملائم لازدهارها . وقد أقام پستالوتزى وهربارت وفروبل نظمهم الجديدة فى التربية الحرة على ملاحظات دقيقة لسلوك الطفل وأطوار نموه . ثم سكنت هذه الحركة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى استؤنفت بدراسات تين فى فرنسا (۱۸۷۶) وداروين فى انجلترا (۱۸۷۷) وخاصة ولهم بريير فى ألمانيا الذى نشر سنة ۱۸۸۱ كتابه المشهور عن عقل الطفل وترقى سلوكه فى السنوات الثلاث الأولى . واحتذى حذو بريير علماء أمريكيون أمثال شن ومور ودير بورن فنشروا ملاحظاتهم اليومية عن النمو الحركى والعقلي فى الطفولة الأولى .

غير أن الدراسات التى تتناول سيكولوجية الطفل من جميع نواحيها لم تتسع

دأرتها إلا في القرن العشرين ، وأصبحت الطفولة تدرس لذاتها كموضوع هام من موضوعات علم النفس العام . فتكون علم نفس الطفل بجانب علم النفس التربوي ، ومن البديهي أن يعتمد الثاني على الأول كما تعتمد الفنون التطبيقية على العلم النظري . وقد أدت دراسات واطسون وجيزل وسوزان أيزكس وقالون وجيموم وشرن وكارل بوهار وشارلوت بوهار وكلا باريد وبياجيه إلى توسيع آفاق علم النفس العام وتعديل بعض أساليبه وإعادة النظر في كثير من النتائج التي وصل إليها علماء النفس والفلاسفة عن طريق المشاهدة الذاتية أو ملاحظة الإنسان البالغ . فقد أبرزت دراسة الطفل قيمة المنهج الموضوعي أو منهج الملاحظة الخارجية الدقيقة لجميع مظاهر السلوك ؛ وطبق هذا المنهج بنجاح عظيم في دراسة البالغين عامة ودراسة البدائيين والمصابين بأمراض عقلية .

وفضلاً عن ذلك الكسب المنهجي فقد ألقت دراسات الطفولة ضوءاً جديداً على مشكلة أصل المعرفة وقيمتها ومشكلة صلة اللغة بالفكر ، كما أدت المقارنة بين الحيوانات والطفل إلى تحديد طبيعة العقل الإنساني وتمييزه تمييزاً جوهرياً من عقل الحيوان . والواقع أن جميع الوظائف العقلية من وجدانية وإدراكية وإرادية حللت تحليلاً دقيقاً خلال الدراسات السيكولوجية الخاصة بالطفل لأن عملية النمو نفسها هي بمثابة تحليل وتأليف في آن واحد وتحقق للعالم ظروفاً ملائمة لتتبع نشوء الوظائف من أبسط صورها إلى أعقدها حتى تتكامل جميعها في حياة البالغ السوي .

ولسنا في حاجة إلى بيان ما أفادته التربية من علم نفس الطفل وما يمكن أن تفيده لأن التطبيق السليم المنتج يكون بمقدار قيمة الحقائق العلمية . فالتربية بما تشمله من مناهج تعليمية تعتمد على أساسين : دراسة شخصية الطفل كعملية تسير باطراد نحو تكامل مقوماتها ثم دراسة عملية التعلم وتكوين العادات . وقد خطت دراسة هذين الموضوعين خطوات واسعة بفضل علم نفس الطفل .

ومن الوجهة التطبيقية أيضاً يجدر بنا أن نشير إلى فروع جديدة من علم النفس

العملى تمتد جذورها إلى علم نفس الطفل . كاختبارات الذكاء والشخصية والتوجيه المهنى والصحة العقلية .

وسنحاول فيما يلى أن نقدم بإيجاز أهم النتائج التى وصل إليها علم النفس الحديث فيما يختص بنمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته .

٢ - النمو العقلى فى الطفولة الأولى واكتساب اللغة

تقسم الطفولة إلى ثلاث مراحل رئيسية : الأولى من الولادة إلى سن ثلاث سنوات ، والثانية من سن ثلاث سنوات إلى حوالى الثامنة ، والثالثة تنتهى عند بدء المراهقة ويفصل بين هذه المراحل تغير واضح فى النمو العقلى وفى تكوين الشخصية . فعند انتهاء السنة الثالثة تحدث أزمة الشخصية الأولى^(١) التى تظهر خلالها مقدرة الطفل على أن يميز ذاته عن الآخرين .

وعند مطلع السنة التاسعة تقوى مدارك الطفل بحيث يتمكن من فهم المعنويات ويصبح قادراً على تقبل منطق الكبار وعلى التعاون الاجتماعى .

ويمكن تقسيم كل مرحلة رئيسية إلى مراحل فرعية وخاصة المرحلة الأولى لأنها تمتاز بسرعة النمو الجسمى والعقلى وبظهور عدد كبير من الوظائف الهامة ومن أساليب السلوك المختلفة التى ستتضح وتنفذ فى مراحل النمو التالية الموصلة إلى مطلع الشباب .

وسنقتصر الآن على أطوار المرحلة الأولى لغزارة مادتها وعظيم دلالتها .

اعتمدنا فى تقسيم مراحل الطفولة إلى ثلاث على سير النمو العقلى عامة . ويمكن اصطفاغ تقسيمات أخرى لو اعتبرنا مثلاً مراحل تكوين شعور الطفل بذاته أو مراحل الترقى الاجتماعى أو النمو الوجدانى ، وسنشير إلى بعض هذه التقسيمات عند حديثنا عن تطور الميل الجنسى ومراحل تكوين الشخصية الذاتية .

(١) تحدث الأزمة الثانية فى أثناء المراهقة ، وهناك أوجه شبه بين الأزمة الأولى والثانية فى الحالتين يتغلب النشاط النفسى الداخلى على مظاهر النشاط الخارجى ، غير أن النشاط فى الحالة الأولى يكون غامضاً وفى الغالب لا شعورياً ؛ أما فى المراهقة فيزداد الشعور حدة وعمقاً .

وإذا أردنا أن نتخذ دليلاً واحداً لتقسيم المرحلة الأولى التي تمتد من الولادة إلى ثلاث سنوات لتعذر علينا الأمر إذ أننا نشاهد النمو يسير بسرعة فائقة ، متناولاً النشاط الحركي والنشاط الحسي ومظاهر الانفعالات وبرزوغ التصور الذهني واكتساب اللغة وأساليب الاستجابات الاجتماعية التي تختلف باختلاف الوسط ؛ فضلاً عن أن هناك عمليات متوازية متآزرة ، تندمج حيناً وتفصل حيناً آخر بحيث لا مناص من التحليل الدقيق للوقوف على تشعب النشاط وتعدد مظاهره ، مع مراعاة التمييز دون أن يؤدي التمييز إلى العزل والتفكيك .

ويجب أن نلاحظ أنه من الخطأ أن نعلل مظاهر السلوك في السنوات الأولى كوقائع مستقلة دون الإشارة إلى الدور الذي تؤديه هذه المظاهر في تحقيق الغرض الذي يتجه إليه النمو . وعلى ذلك تكون المراحل الفرعية التي يمكن تحديدها بمثابة خطوات مؤدية إلى اكتمال الوظائف الحركية والعقلية . ويمكن تقسيم المرحلة الأولى الرئيسية التي تبدأ بالولادة حتى مطلع السنة الرابعة إلى المراحل الفرعية الآتية : أولاً من الولادة إلى انتهاء الأسبوع الثاني ، ثانياً من الأسبوع الثالث إلى الشهر السادس ، ثالثاً من الشهر السادس إلى آخر السنة الأولى ، وأخيراً السنتان الثانية والثالثة . ففي الأسبوعين الأولين تكون حياة المولود الحديث مقصورة على بعض الحركات المنعكسة وعلى استجابات حركية عامة غير واضحة وغير متآزرة لا ترمي إلى غرض معين ، فضلاً عن أن المولود الحديث يقضى حوالى عشرين ساعة في النوم .

أما المرحلة التي تنتهى عند الشهر السادس فتمتاز بتلاشى النشاط المنعكس وظهور القدرة على توجيه بعض الحركات وترباطها بحركات اليد والعينين . وفي خلال السنة الأولى تستمر عملية نضوج بعض المراكز العصبية الحركية وخاصة جهاز الحركة الإرادية . وهناك تغير هام يحدث في أواخر الشهر الأول وهو قابلية المولود الحديث للتأثر بالبيئة الخارجية ومحاولة التكيف لها . ففي الشهر الثاني تظهر الابتسامة كاستجابة اجتماعية لا كمجرد فعل منعكس ، كما تظهر الاستجابات التكيفية لكل ما له اتصال مباشر بحاجات الطفل وإرضائها كالأم مثلاً .

ويتقدم النشاط الحسى والحركى بظهور قدرة الطفل على تغيير أوضاع الرأس والجسم ومتابعة الأشياء المتحركة بنظره ، فى حدود ضيقة أولاً ثم يتسع مجاله الإدراكى كلما زادت قدرته الحركية . وتؤدى الحركة دوراً هاماً فى تمكين الطفل من إدراك الأشياء متميزة بعد أن كان يدرك مجموعات الأشياء بطريقة مبهمه . وأولى الأشياء التى تتميز فى إدراك الطفل هى التى تمت بصلة ما إلى حاجاته العضوية ودوافعه الوجدانية . وتزداد قدرة الطفل على الحركات الإرادية فى النصف الثانى من السنة الأولى ، وظهور القدرة على المشى دليل على نضوج الطرق العصبية للحركة الإرادية .

وأهم دليل على النمو العقلى اكتساب اللغة . فذكاء الحيوان محدود بعجزه عن التحرر من قيود المكان وال لحظة الزاهنة ، فهو بمثابة وسيلة فى خدمة حاجاته العضوية فحسب . وإذا كان ذكاء الطفل فى مرحلته الأولى كبير الشبه بذكاء الحيوان ، غير أنه لن يلبث طويلاً حتى يختلف عنه اختلافاً جوهرياً وذلك بظهور القدرة على فهم الرموز وخلق رموز جديدة . وليس فهم الرموز فى الطفل نتيجة تدريب فحسب ، كما هو الحال فى الحيوان ، بل هو مظهر إيجابى لنشاط خاص ، هو نشاط العقل الذى يمتاز قبل كل شىء بقدرته على التجريد والتعميم . نلاحظ فى الإنسان فقط ، دون سائر الحيوانات ، أن الفكر ، وإن كان فى غالب الأحيان وسيلة من وسائل التكيف ، فى إمكانه أن يصبح غاية وأن يتناول موضوعات تسمو على العالم الحسى . ليس العقل نتيجة التدريب ، حتى إذا وصل التدريب إلى تمكين الحيوان من أن يستجيب لبعض الرموز ، بل هو فى الإنسان الشرط الأول والضرورى لاكتساب اللغة .

وتظهر قدرة الطفل على استخدام الرموز فى اصطناعه التعبيرات الانفعالية كلفة للتأثير فى الآخرين^(١) . وأول تأثير يوجهه الطفل نحو العالم الخارجى هو الصياح عند ما يتحول من فعل منعكس إلى نداء ، أى عند ما يتحول إلى أداة . ثم يأخذ

(١) المنهج التكاملى وتصنيف الوقائع النفسية للدكتور يوسف مراد . ص ٢٩٧ من مجلة علم النفس عدد فبراير ١٩٤٦ .

هذا النداء في التمايز والتنوع فتتفرع منه الأصوات والألفاظ ، بينما يتسع مجال الأشياء والمواقف التي تثير استجابات الطفل . وبما يجدر ذكره هنا قدرة الطفل على أن يتوقع حدوث الأثر الذي يحدثه عادة ما يقوم به من حركات أو ما يصدره من أصوات . واللغة من حيث وظيفتها لا تختلف عن سائر الحركات التي يؤديها الطفل لإحداث أثر من الآثار ، فهي وسيلة وأداة في خدمة العقل ، غير أنها أداة دقيقة مرنة تساعد العقل في نموه وتمكنه من إبراز شتى ممكناته .

وأكبر دليل على أن اللغة ليست إلا أداة اصطنعها العقل نلمسه بكل جلاء في تتبع المراحل التي يقطعها الطفل في اكتساب اللغة . وتكون مرحلة فهم اللغة سابقة على استخدامها لأن الفكر هو رائد اللغة لا العكس ، ويتناول فهم الطفل أولاً المواقف الإجمالية من حركات الوجه والإيماءات وحركات انتقال الأشخاص من ذهاب وإياب ووقوف ، ثم ينحصر الفهم في مواقف جزئية ويزداد تمييزاً للتفاصيل وأوجه التشابه والتقابل القائمة بينها .

ويفهم الطفل الحركات والإيماءات قبل فهمه الكلام ، وينفعل أولاً لغمة الجلمة وصفاتها الموسيقية قبل أن يفهم لفظاً منفرداً ، فإذا وجه إليه أمر بلهجة ذات وتيرة واحدة وبدون توضيح الأمر بالإشارة فإنه لا يستجيب .

رأينا أن الموقف الإجمالي في بادئ الأمر ، بما فيه صوت المتكلم وحركاته هو الذي يوحى بالمعنى إلى ذهن الطفل . ثم يتعلم الطفل أن يربط لفظاً ما بشيء معين بدون الاستعانة بإيماءات المتكلم ، ولكن إذا أطلق المتكلم اللفظ الذي تعلمه الطفل على شيء آخر مماثل للأول من حيث الوظيفة ولكن يختلف عنه من حيث الوضع أو الحجم أو الخصائص الإدراكية الأخرى ، أصبح اللفظ غير مفهوم ؛ وفي هذه الحالة لا بد أن يستعين المتكلم بالإشارة لكي يفهم الطفل أن اللفظ الواحد يمكن إطلاقه على أشياء عدة في نفس الوقت . وهذه المرحلة من أهم مراحل تكوين المعاني الكلية إذ سوف يطلق الطفل اللفظ عيونه على أشياء عديدة ، كأنه يدرك أن الاسم ليس من خصائص الشيء الجوهرية ، أي أن الاسم مجرد رمز للمسمى .

غير أن الطفل سوف ينتقل من التخصيص إلى التعميم الأعمى ، مطلقاً اللفظ الواحد على أشياء مختلفة ، وبهذا يبدو أن الطفل يتقهرق إلى الوراء ويعود إلى مرحلة سبق له اجتيازها . ولكن تلك هي سنة التقدم ^(١) . فليس هذا الارتداد سوى الخطوات التي يخطوها المرء إلى الوراء قبل أن يثب وثبة جديدة . والواقع أن الطفل لا يلبث طويلاً حتى يتعلم كيف يفرق بين الأشياء المختلفة ، فيقوى تمييزه في إطلاقه نفس اللفظ على الأشياء المتماثلة .

وكذلك يتطور فهم الطفل للأوامر الموجهة إليه تبعاً لنظام معين يبين لنا مقدار ترقى نضوجه العقلي . فإنه يفهم أولاً الأوامر المصحوبة بالإشارة ، ثم غير المصحوبة بالإشارة ، ويفهم أولاً الأوامر المتعلقة بحركات جسمه ، ثم الأوامر المتعلقة بتحريك أشياء خارجية ومعالجتها باليد ، وكذلك يفهم أولاً الأوامر الخاصة بمعالجة الأشياء الموجودة في المجال البصري الراهن ، ثم الأشياء الموجودة خارج هذا المجال ، وحينئذ تنضج قدرة الطفل على تصور الأشياء الغائبة وتذكرها .

وعند ما يبتدىء الطفل في أواخر السنة الثانية يفهم ما يدور حوله من حديث ، فإنه يفهم أولاً الحديث الذي يشير إليه أو إلى ما يعمل أو ما يجب أن يعمل ، ثم يفهم بعض أشتار الحديث الذي يدور حوله حتى ولو لم يكن هو موضوع هذا الحديث ، ولكن بشرط أن يتناول الحديث أمراً يثير اهتمامه وكثيراً ما يدفع إلى التدخل في الأمر من تلقاء نفسه .

ويكشف الطفل رويداً ، بفضل عناية البيئة الاجتماعية بأمر تلقينه اللغة ، قدرة الآلة اللغوية على حمل الآخرين على إرضاء رغباته . فقد يلاحظ الطفل أن من حوله يفهمون ألفاظه بأسرع مما يدركون معنى حركاته ، وذلك خاصة عند ما يكون الشيء الذي يبتغيه غير موجود مباشرة في مجال الإدراك كما أنه لا يلبث طويلاً حتى يدرك أن في إمكانه أن يتكلم بدون أن ينقطع عما يقوم به من سلوك حركي ومن

(١) المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية للدكتور يوسف مراد . ص ٢٩٠ من مجلة علم النفس عدد فبراير ١٩٤٦ .

معالجات يدوية ، وتلك ميزة كبيرة تفوق بها لغة الكلام لغة الحركات والإيماءات .

٣ — مراحل تطوّر الميل الجنسي

إن لنمو الوجدانيات في الطفل أثراً بليغاً في تكوين شخصيته وفي الاتجاهات التي سيتخذها سلوكه في المستقبل . وقد كشفت لنا مدرسة التحليل النفسي عن جانب هام من حياة الطفل الوجدانية بدراساتها لتطور الميل الجنسي وما قد يعتريه من انحراف . والواقع أن دراسة الجنسية في الطفل من وجهتها النفسية حديثة العهد إذا قارناها بدراسة غيرها من الوظائف . ويرجع الفضل الأكبر في إمطة اللثام عن المظاهر الجنسية في سلوك الطفل إلى فرويد ومدرسته المعروفة بالتحليل النفسي . ومما يزيد من فضله شجاعته في مواجهة هذا الموضوع الذي كان يحيط به ستار من التكمم والتحريم ، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر . غير أن هذا الموضوع قد استرعى اهتمام بعض الكتاب والروائيين . فحاولوا الكشف عن بعض نواحيه أمثال روسو في القرن الثامن عشر وألفرد دي موسيه وستندال وبلزاك في القرن التاسع عشر في قصصهم واعترافاتهم .

وقبل عرض آراء فرويد سنشير بكلمة وجيزة إلى المنهج الذي انتهجه للوصول إلى نتائجه وما يمكن توجيهه من اعتراض على هذا المنهج من الوجهة العلمية . يصور لنا فرويد مراحل الجنسية في نظريته بأنها المراحل العادية التي يجتازها كل طفل حتماً . غير أنه لم يكشف هذه المراحل بدراسة الطفولة مباشرة بل بدراسة الحالات الشاذة في البالغين وبالرجوع في ضوء المعلومات الكلينيكية (أي التي يحصلها في أثناء العلاج) إلى ما يجب أن تكون عليه مراحل النمو في السنين الأولى من حياة الطفل .

وأهم اعتراض يوجه إلى هذا المنهج هو قصره على الحالات المرضية ثم الاعتماد على الاستنتاج التركيبي أو الاستدلال على ما كانت عليه السنين الأولى بما هو ملاحظ

الآن في سن العشرين أو الثلاثين . فمعارضو فرويد يطعنون خاصة في قيمة الأدلة التي يستند إليها لتقرير نشاط جنسى في الطفل وإظهاره في صورة غاية في التعقد والتشعب ، بل في صورة مشوهة إذ يعزو فرويد إلى الطفل سمات الشخص المنحرف المريض . ويقول فرويد رداً على المعارضة إن موقف المؤلفين الذين ينكرون وجود نشاط جنسى لدى الطفل يرجع إلى سببين : الأول ذاتى خاص بالمؤلفين أنفسهم ، والثانى موضوعى خاص بأحوال الطفل النفسية .

والسبب الأول هو إمساك المؤلفين عن الكلام فى النشاط الجنسى عند دراسة نفسية الطفل لأسباب خلقية عرفية ، ولاعتقادهم بأن المظاهر الجنسية لا بد أن تتبع مظاهر الوظيفة التناسلية ، فخصروا كل ما هو جنسى فى دائرة ما هو تناسلى فقط . أما السبب الثانى وهو أهمهما ، فهو نسيان الطفل حوادث حياته الأولى حتى السنة الرابعة أو الخامسة وذلك بتأثير ما يعرف بالسكبت اللاشعورى ، والاعتقاد بأن هذا النسيان نهائى ، من المحال علاجه واستعادة ذكرى الحوادث التى شملها . والواقع أن مذهب فرويد يدور حول هذه النقطة المركزية وهى السكبت . فطريقة التحليل النفسانى ترمى إلى غرض واحد هام : هو استرجاع الذكريات الوجدانية المنسية المسكوبة . وبهذه الكيفية يسهل الكشف عن شعور الطفل بوساطة دراسة الآثار التى تركتها التجارب الوجدانية الأولى فى شعور البالغ . وعلى الرغم من أن معلوماتنا الأولى عن محتويات الشعور الطفلى غير مباشرة فإنها تساعدنا على فهم الملاحظات المباشرة التى نقوم بها على الطفل ، كما أنها تساعدنا على تحليل الأعراض المصاحبة للاضطرابات العصبية والنفسية التى تظهر فى سن الطفولة .

يتلخص منهج فرويد إذن فى وصف سلوك الطفل وشعوره فى ضوء تحليل سلوك البالغ وشعوره . ومن أهم أسس هذا المنهج ما يعرف بقانون الإعادة Law of Recapitulation . فالمرحلة تمر بمراحل شبيهة بمراحل الطفولة من حيث تركيز اللذة فى مواطن دون غيرها والكشف عن موضوع التعلق أو العشق . ولكن يجب ألا تنسينا أوجه الشبه الفوارق الأساسية الموجودة بين الطفولة والمرحلة من حيث

قابلية كل من الطفل والمراهق للتأثر بالبيئة العائلية وبالقيم الخلقية ، هذا فضلاً عما يضيفه التقدم العقلي ونمو المدارك إلى شخصية المراهق من استعدادات وصفات جديدة .

ثم إن فرويد اهتم خاصة بحالات المرض والانحراف وهو يعتبر هذه الحالات ناشئة عن وقوف النمو الجنسي والوجداني عند مرحلة طفلية أو عن الارتداد إلى هذه المرحلة تحت تأثير انفعالات قوية أو تجارب مؤلمة تؤدي إلى تضعف الشخصية وتفككها . ولكن هل يحق لنا أن نعتبر هذه الحالات المنحرفة صورة صادقة لما كان عليه النمو الجنسي والوجداني في مراحل الطفولة الأولى ؟ هذا ما يشك فيه معارضو فرويد ولذلك انتهجوا منهجاً تصاعدياً مبتدئين من شعور الطفل للوصول إلى شعور المراهق والبالغ ومسترشدين في هذه الحالة بما تسفر عنه دراسة الشخصية بأكملها التي تضم من بين مائضم الناحية الجنسية ، وسنعرض لنتائج هذا المنهج بعد النظر في آراء فرويد مبينين كيف يمكن الاستفادة بالنتائج التي وصل إليها وإدماجها في الصورة المتكاملة لشخصية الطفل والمراهق .

يقوم مذهب فرويد على معنى الصراع الدائم بين قوتين متعارضتين أو مبدئين متقابلين . يحوى كل فرد كمية كبيرة من الطاقة الحيوية أطلق فرويد عليها كلمة « لبيدو » Libido وهي كلمة لاتينية تفيد معنى الشهوة . واعتبر هذه الشهوة شبقية في جوهرها erotic وفيها تتمثل غريزة الحياة . ثم رأى فرويد في مؤلفاته الأخيرة أن هناك قوة ثانية مضادة للأولى ، مغطورة أيضاً في الإنسان ، ترمي إلى الموت والدمار هي غريزة الموت . وعند ما تكون هذه القوة المدمرة موجهة نحو الداخل أى نحو الشخص ذاته ينشأ عنها الميل إلى تعذيب الذات وعقابها وإفنائها ، في حين أنها تتخذ صورة الاندفاعات العدوانية القاسية عند ما تتجه نحو الخارج أى نحو أشخاص آخرين .

وهناك أيضاً مبدآن متنافران يتنازعان شعور الفرد وسلوكه هما مبدأ اللذة ومبدأ الواقع . فكل ما يعمله الفرد للحصول على لذة عاجلة أو لتجنب ألم يكون

خاضعاً لمبدأ اللذة . وذلك المنهاج في السلوك خاص بالحياة اللاشعورية و بالأطفال و بالعصابيين أى بالمصابين بأمراض نفسية Neurotics . أما السلوك الذى يراعى فيه صاحبه مقتضيات الحياة الاجتماعية والظروف الخارجية ، أى السلوك الذى يرمى إلى التوافق والتكيف ، فيكون خاضعاً لمبدأ الواقع . وهناك عوامل أخرى مزدوجة ومتنافرة فى نفس الوقت تتخذ من حياة الفرد وشعوره مسرحاً لتطاحنهما كالدورة والأنوثة ، والحب والبغض . ويقوم الصراع بين هذه المبادئ والعوامل المتقابلة ؛ وفى حالة الصحة العقلية والتكيف الناجح ينتهى الصراع بنوع من التراضى . أما فى حالة عدم تحقيق هذا التراضى ، فتكون النتيجة ظهور الأعراض العصابية والأمراض النفسية .

تمر الجنسية فى نموها بثلاثة أطوار: الطفولة وطور الكون الجنسى وطور المراهقة . وقد اهتم فرويد خاصة بالطور الأول الذى ينتهى عند سن الخامسة أو السادسة وقد قسمه إلى ثلاث مراحل . المرحلة الفمية Oral والمرحلة الإستمىة (الشرجية) Anal وبها غير تناسليتين ، والمرحلة التناسلية الأولى المعروفة بالقضيبيية Phallic والتناسلى هنا نسبة إلى أعضاء التناسل لا إلى الوظيفة .

وتحدث فى طور الطفولة عمليتان متصلتان إلى حد ما، الأولى تركيز الليبيدو libido فى مناطق الجسم المثيرة للذة والثانية الكشف عن الشخص الآخر الذى سيمصيح موضوعاً خارجياً للعشق أو التعلق الجنسى . وتحدث العملية الثانية فى المرحلة القضيبيية . لا شك فى أن المولود الحديث لا يلبث طويلاً حتى ينزع إلى البحث عن اللذة الجسمية لجرد التمتع بها أو لما تحدثه من إرضاء أو تخفيف للتوتر والضييق . ومن مصادر اللذة تنبيه العضلات و سطح الجلد بالذلك والمداعبة . غير أن توليد اللذة سيمتركز بكيفية خاصة فى بعض المناطق دون أن يكون فى بادئ الأمر صلة بين منطقة وأخرى . وهذه المناطق هى الأغشية التى تكسو الشفاه والخدين واللسان والثديين والإست و مجارى البول وما يتعلق بها . وستتجمع هذه اللذات الفرعية فيما بعد

وتتلاقى في سن المراهقة؛ ومن الملاحظ أن عملية التجمع والتوحيد تتبع تكوين معنى الشيء المحبوب أو موضوع العشق أو الحب .

والمرحلة الأولى هي كما ذكرنا المرحلة الفمية التي تكون فيها الليبيدو مركزة في منطقة الفم . ويحصل الرضيع على اللذة بواسطة الرضاعة ومص الإبهام ، ثم بعد حين بالعض والمضغ وهما من مظاهر الميل إلى العدوان والتحطيم . ويصف فرويد هذه المرحلة بأنها مرحلة التعشق الذاتي البدائي ، أي أن الليبيدو لا تكون موجهة نحو غرض أو موضوع متميز عنها . غير أن هذه التسمية مضللة إذ لا يوجد في الواقع في هذه المرحلة ما هو شبيه بالتعشق إذ أن العشق يقتضي وجود طرفين متميزين ، والطفل في الشهور الأولى عاجز عن أن يدرك أنه ذات ، فهو لا يزال في مرحلة اللاتمايز *indifferenciation* حيث لا يوجد تمييز واضح بين الأنا واللا أنا .

فيستحسن تسمية هذه المرحلة بمرحلة التلذذ اللا تعشق ، إذ لاتعدو لذات الرضيع أن تكون سنوى إحساسات جسمية . أما تعلق الرضيع بأمه فهو بمثابة تعلقه بأي جزء من جسمه من شأنه أن يشبع رغبته في اللذة . فإنه لا يتعلق بأمه من حيث هي ذات متميزة عن ذاته ، بل من حيث هي مجرد طعام له .

وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر يفقد التلذذ الفمي من سيطرته ليحل محله في المرتبة الأولى التلذذ الإستی . غير أنه في بعض الأطفال يظل التلذذ الفمي متغلباً فيشاهد في بعضهم استمرارهم في مص الإبهام حتى السنة الثالثة أو الرابعة . وتفاديا لهذه العادة السيئة — وهي سيئة لأنها تعوق التطور الطبيعي — يجب حرمان الطفل من المصاصة الصناعية قبل انتهاء السنة الأولى .

ويشاهد في المرحلة الإستمية تغير هام في سلوك الطفل . فإنه أخذ يميز بين الأشياء الخارجية المتميزة عنه ومن ضمن هذه الأشياء برازه ، هذا الشيء الذي منه والذي سيفصل عنه . ويمكن القول إن التعشق يظهر لأول مرة في هذه المرحلة . فقد وجدت الطاقة الوجدانية الغريزية معشوقها الأول ويكون التلذذ الإستی على ضربين لذة الإخراج والقذف ثم بعد حين لذة الإبقاء والإمساك . وترجع بعض الحالات

الشاذة في البالغين إلى وقف النمو عند إحدى مراحل الطفولة الأولى والارتداد إليها فالقسوة مثلاً هي رجوع إلى طور التلذذ بالعض والمضغ ، كما أن البخل والعناد ناتجان عن الارتداد إلى طور التلذذ الإستي بالإمسك والإبقاء .

ويكون الطفل في هاتين المرحلتين منقاداً لمبدأ اللذة ولميوله العدوانية التحطيمية فلا بد من تدخل مبدأ الواقع تحت تأثير التربية . فالغضام مثلاً من عوامل إضعاف اللذة الفمية وتحويل الليبيدو عن منطقة الفم . وفيما يختص بتحويلها عن منطقة الإستلاب من أن تحاول الأم تنظيم عملية التبرز في طفلها ، فتدبره على القيام بهذه العملية في ساعات وظروف معينة ، وتظهر له اغتباطها كلما تقيّد بالنظام واستفاد من التدريب أو توبخه وتعاقبه كلما تمرد وعصى . فإن تلقين الطفل معنى النظافة وإفهامه أنها أمر مستحب في حين أن القذارة مستقبحة يجب تفاديها من أهم العوامل المقومة لخلق الطفل . وسيتأثر مدى حياته بهذا الدرس الأول وبهذه التجارب الأولى التي تولد في نفسه رويداً رويداً معاني السخط والرضى ومعاني الثواب والعقاب . ويترب على آثار التربية أن تتحول الطاقة الوجدانية من طور الأخذ والضم إلى طور العطاء والبذل والتضحية ، فإن أول هبة يقدمها الطفل إلى أمه ، أى أول مظهر للحب الموجه نحو الآخرين هو القيام بعملية التبرز بدون تلوّث ثيابه .

سبق أن قلنا إن فرويد يعتبر المرحلة الفمية والمرحلة الإستية غير تناسليتين ، أى أن لاصلة بينهما وبين أعضاء التناسل على العكس من المرحلة القضيئية التي تلي المرحلة الإستية ، غير أن الواقع لا يؤيد هذه التفرقة . فإن الرضيع وهو في أواخر المرحلة الفمية قد يحقق أحياناً اللذة الجنسية عن طريق لمس أعضائه التناسلية والعبث بها . ومن العسير نعت هذه اللذة بالجنسية إذ أن التمييز بين الجنسية لم يتحقق بعد في شعور الطفل . فهي لذة تناسلية بالنسبة إلى المنطقة فقط واسكنها لذة عامة غير نوعية . ومهما يكن من أمر فسوف نرى كيف أن هذه الصعوبات التي يثيرها فرويد باستخدامه لفظي جنسي وتناسلي عند ما يتحدث عن السنة الأولى من حياة الطفل تزول في ضوء دراسة الشخصية بأكملها في أثناء تكونها ونموها .

أما المرحلة الثالثة — وهى المرحلة القضيية التى تدوم من أواخر السنة الثالثة حتى السادسة — فهى تناسلية وجنسية إذ يبدأ الطفل فى هذه السن يميز بين الجنسين بما يشاهده من اختلاف بين الصبى والبنت من حيث الملبس ووسائل اللعب وشكل الجسم واستخدام ضمير المذكر والمؤنث إلخ . . .

فكل ما سبق تفصيله بشأن المرحلتين الأولى والثانية ينطبق على الصبى والبنت على السواء . أما فى المرحلة الثالثة فتأخذ محتويات الشعور فى الصبى وفى البنت فى الاختلاف والتميز . وفى سن الثالثة يمر الطفل بأزمة نفسية سيبرز خلالها شعور الطفل بذاتيته . فهى الأزمة الأولى التى يعانىها الطفل فى أثناء تكوين شخصيته الذاتية أو أنيته وسيمر بأزمة مماثلة لها فى طور المراهقة عندما يكتمل شعوره بذاتيته . ومن أهم عوامل تكوين الشعور بالأنا أو بالذات انفعال الغيرة الذى يتخذ شكلا واضحا بين السنة الثالثة والرابعة .

وعند تكوين الشعور بالأنا Ego تتعلق الطاقة الوجدانية بذات الطفل ، فيحب الطفل ذاته وقد سمى فرويد هذا المظهر من حب الذات بالنرجسية narcissism نسبة إلى أسطورة نرسيسوس الذى عشق نفسه بعد أن استغرق طويلا فى تأمل صورته فى الماء . ويعتبر فرويد الطبع المركز حول ذاته رجوعاً إلى طور النرجسية الأولى وسيمر المراهق فى بداية المراهقة بمرحلة نرجسية ثانية متخذاً من نفسه موضوعاً لعشقه . وفى المرحلة القضيية يبدأ الصبى يشعر بأن جنسه أرقى من الجنس الآخر ، وأن الدور الذى سيؤديه أخطر وأجل من دور البنت . وهو يعتبر الجنس الآخر ناقصاً من الوجهة العضوية وقد يخالجه أحياناً الخوف الشديد من أن يحرم مما يميزه عنه ، وقد ينشأ من هذا الخوف ما يسميه فرويد بعقدة الإخضاء castration complex وكذلك الطفلة قد تعتبر نفسها أخط من الصبى ويخشى عليها أن لا تتحرر من هذا الاعتقاد الذى من شأنه أن يؤدى فى المستقبل إلى الانحراف والاختلال ، ومن هنا قد ينشأ ما يعرف بعقدة الذكورة masculinity complex . على أن نفس الخطر قد يهدد الصبى على الرغم من شعوره بتفوق جنسه على الآخر . فإنه لا يلبث طويلا حتى

يشعر بطريقة غير واضحة أن للجنس الآخر مزايا هو محروم منها ، فيشقى عليه ذلك ويمر كالبنات على السواء بدور تراوح بين قطبي الذكورة والأنوثة . وهنا أيضا يجب أن تتدخل العوامل التربيبية بطريقة فعالة ، فعلى المربي أن يُثبت كلامه الصبي والبنات في جنسه وأن يساعدهما على إدراك ما يميز الرجل والمرأة من حيث وظيفتهما في الأسرة والمجتمع .

وفي هذه المرحلة أيضاً يظهر ما يسميه فرويد بالعقدة الأوديبية *oedipus complex* نسبة إلى أسطورة أوديبوس الذي نشأ بعيداً عن أبويه فشاءت الأقدار أن يقتل أباه وأن يتزوج من أمه دون أن يتعرفهما . والعقدة الأوديبية أول مظهر من مظاهر النشاط الجنسي لدى الطفل ، فيتمسك الطفل أمه والطفلة أباهما ويصحب هذا التمسك كراهية الطفل نحو أبيه أو الطفلة نحو أمها . وقد تتعد هذه الصورة ، فقد رأى فرويد أن شعور الطفل يكون مزدوجاً حاولياً العاطفتين المتقابلتين من حب و بغض نحو شخص واحد . وقد أثار ما ذهب إليه فرويد بصدد هذه العقدة نقداً عنيفاً لاذعاً . فكثير من علماء النفس الذين اعتنوا بدراسة الطفولة عناية خاصة ينكرون وجود مثل هذه العقدة ^(١) . ورد فرويد على معترضيه بوضعهم في حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها ، فإنكار معارضيه لعقدة أوديبوس يرجع إلى الكبت اللاشعوري ، ولا يمكن الإيمان بالكبت اللاشعوري كما يصفه فرويد إلا بالافتناع بصحة مذهبه . ومهما يكن من أمر حقيقة هذه العقدة فإن العوامل الاجتماعية وحنان الوالدين نحو أطفالهما بدون أن يؤثر أحداً على الآخر بطريقة صارخة ، وكذلك عندما تحيا الأسرة في جو من الوفاق والمودة ، كل ذلك من شأنه أن يخفف من آثار البغض والكراهية .

(١) من أمثال هؤلاء العالم Valentine في كتاب حديث ظهر سنة ١٩٤٢ Psychology of Early Childhood فقد أراد أن يتحقق من وجود هذه العقدة في أطفاله وفي أطفال زملائه فكانت نتائج بحثه سلبية . أنظر في القسم الانجليزي من هذا العدد المقال الذي كتبه Valentine خصيصاً لمجلة علم النفس .

ويقول فرويد إن لهذا التعشق المتغاير أهمية كبرى في تنمية عواطف الطفل وتوجيه الميل الجنسي توجيهها طبيعياً ، إذ أن التطور السوى يقتضى نقل هذا التعشق من ممثلى الجنسين ، أى من الأم والأب ، إلى الشخص الذى سيختاره البالغ فيما بعد موضوعاً لحبه السوى ، أى الحب الموجه لممثل الجنس الآخر . ويعتبر فرويد أن الشذوذ الجنسي المعروف بالجنسية المثلية homosexuality والذى يؤدى إلى اللواط يرجع إلى عدم تحرر الطفل أو المراهق من تعلقه المفرط بأمه^(١) .

وإعداد الطفل لدخول عالم الحب الجنسي المتغاير أو الجنسية الغيرية-heterosexuality يتم في المرحلة الرابعة ، وهى ما يسميه فرويد بطور الكون الجنسي sexual latency الذى يمتد من السادسة إلى الثانية عشرة تقريباً . وليست هذه المرحلة مرحلة ركود وسكون ، بل يتطور فيها التعشق تطوراً محسوساً . وأول مظهر منه تحرير التعشق من ربة الأوصال الجسمية . فتحل العقدة الأوديبية بأن ينفصل التعشق عن الأم لدى الطفل ويزول ما كان يشوب محبته نحو أبيه من نفور وكرهية . ولهذا المرحلة أهمية عظيمة في تكوين الشخصية إذ تنصرف الوجدانيات إلى عالم السمو ويميل الطفل إلى الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، ويبدأ في إدراك معانى الاعتماد على النفس والحязفة والشجاعة وتطبيق هذه المعانى في سلوكه اليومي .

وقبيل انتهاء هذه المرحلة تبرز تباشير الصداقة الممزوجة بحب برىء نقي طاهر ، وقد يكون المعشوق إما شخصاً من الجنس الآخر أو من نفس الجنس . ويجب ألا تعتبر هذه المظاهر الغرامية مظاهر شاذة منحرفة ، فقد ترتقى عواطف الطفل الكبير إلى أقصى حد من الإعلاء والتسامح . وأما الشاذ فهو الذى لم يشعر في هذه السن بالحاجة إلى التعلق بصديق يضحى في سبيله ويخاطر لإرضائه . فإن من أطيب الذكريات إلى المرء تلك التى تحي من جديد الصداقات والمواد الأولى التى تعطر بأريجها الحياة كلها .

(١) راجع في هذا العدد حالة « ا » في مقال الأستاذ عبد العزيز عبد المنعم المليجي : كيف ينعدم التوافق الاجتماعى .

٣. مراحل تكوين الشخصية

في هذه الصورة المعقدة التي ترسمها مدرسة التحليل النفساني لتطور الجنسية في الطفل، ومن ثم تطور شخصيته، نلاحظ بوضوح الدور الأساسي الذي تؤديه الغريزة الجنسية وكيف أن مظاهرها المتعاقبة تعين المراحل التي تمر بها الشخصية في أثناء نموها. ويبدو أن كل نزعات الطفل وانفعالاته وعواطفه تصدر كلها عن الليبيدو وتدور حولها وترجع دائماً إليها. قد تبدو هذه الطريقة في الوصف والتعليل مغربة بوحدها وتماسكها وربما ببساطتها، إذ أنها ترجع في نهاية الأمر إلى تعليل واحد لا يتغير. فمن اليسير دائماً مع شيء من المهارة في تلمس الرموز وتأويلها إرجاع كل شيء إلى الغريزة الجنسية.

والواقع أن هناك نزعات أخرى في الطفل تظهر في سلوكه وتوجهه تبعاً للمواقف الخارجية. وإذا كان للسلوك عوامل فطرية بدون شك، فإن هذه العوامل هي بمثابة قدرات قد تظهر أو لا تظهر وقد تتخذ هذه الصورة أو تلك تبعاً لعوامل البيئة العائلية التي يحيا فيها الطفل. فالسلوك هو في نفس الوقت تعبير تلقائي إلى حد ما واستجابة لمواقف خارجية^(١). ونظراً لما تمتاز به العوامل الفطرية من مرونة ومن عدم تعين وتمايز يمكن القطع بأن الأثر الأكبر يرجع إلى العوامل الخارجية. فإن العلماء الذين درسوا الشعوب البدائية حيث تكون نظم التربية والقيم الخلقية مختلفة عما هي عليه في الشعوب المتحضرة لاحظوا عدم ظهور طور الكمون الجنسي في الطفل. وكذلك في الشعوب التي تكون فيها السلالة عن طريق الأم والسلطة للخال فلا وجود لعقدة أوديبوس، بل يصبح الخال هو الشخص المبعوض، لا الأب، لأنه يمثل السلطة. فالانفعالات والعواطف هي بالأخص من ضروب الاستجابة لموقف خارجي، وما يهم العالم هو دراسة الواقع كما هو وحصر قيمة النتائج في دائرة الواقع الذي يتناوله البحث. إننا لانفكر أهمية الدافع الجنسي ولسكننا ننكر أنه الدافع الوحيد. ولم يكتسب هذا

J. L. Moreno and Florence B. Moreno. Spontaneity (١)
Theory of Child Development. Sociometry, Vol. VII, May 1944

الدافع مثل هذا القدر من الأهمية في نظر بعضهم إلا لأنه فصل عن سواه من الدوافع التي تعين مظاهر السلوك وتوجهها في أثناء تفاعلها مع عوامل البيئة الخارجية . فإن هناك دافعاً هاماً يكاد يكون أهم من الدافع الجنسي لأنه أعم منه وهو رغبة الطفل في التفوق والتغلب على ما يشعر به من قصور وعجز ، هو رغبته في الظهور ، وإثبات قدرته على الحركة والعمل والتأثير في العالم الخارجى تعويضاً عن شعوره بالقصور والعجز^(١) . وقد تتخذ أساليب التفوق أو الظهور أو التظاهر شكلاً جنسياً وذلك للحساسية الخاصة التي تمتاز بها المنطقة التناسلية . وقد تكون هذه الأساليب سوية أو منحرفة تبعاً لاتجاه الشخصية الرئيسى أو الأسلوب العام الذى ينتهجه الطفل أو المراهق في حياته كالخوف أو العدوان أو حب التعاون .

وقد أدى منهج فرويد إلى الوقوع في الخطأ فيما يختص بطبيعة اللذة ، فاعتبر كل لذة جنسية في جوهرها ، كما أنه اعتبر الطاقات الحيوية والنفسية جنسية في أصلها . والواقع أن اللذة تصحب عمل كل وظيفة عند ما يكون هذا العمل سوياً معتدلاً وتتشكل اللذة باختلاف الوظائف ، وقد تكون اللذة ناتجة عن النشاط من حيث هو مجرد نشاط دون تخصص ولا تنوع وقد تتحول اللذة التي تكون في السنوات الأولى من حياة الطفل غير مخصصة إلى لذة نوعية يمكن نعتها بالجنسية مثلاً إذا كانت نتيجة تنشيط الوظيفة الجنسية فيما بعد ، فإنه من الخطأ اعتبار اللذة التي تصاحب عملية المص أو الإبراز جنسية لأنها قد تصاحب فيما بعد تنشيط الوظيفة الجنسية .

فلا بد إذن من توخى الحيلة والحذر عندما نتحدث عن نشاط الطفل في سنواته الأولى ، ولا بد من مراعاة جميع العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيته وأسلوبه الاستجابي . وعلى ذلك يجدر بنا أن نذكر المراحل العامة التي تمر بها الشخصية في أثناء نموها وكيف أن هذه المراحل تنظم المظاهر الجنسية التي تصبح حينئذ ثانوية وخاضعة لأسلوب الشخصية العام .

(١) أنظر كتاب الأستاذ اسحق رمزي : علم النفس الفردى ، ص ٦٢ وما بعدها و ص ٨٢ وما بعدها عن القصور والتعويض . منشورات جماعة علم النفس التكاملي ، الناشر دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ .

ودراسة الطفولة من الوجهة السيكولوجية لا تزال في طورها الأول وهو طور الدراسات الجزئية التي تتناول ناحية من النمو دون غيرها . والواقع أن عهد الطفولة غزير المادة متشعب النواحي يزداد تعقداً مع مرور الشهور والسنوات ومع ظهور الوظائف الجديدة وتعاونها مع الوظائف التي سبق ظهورها . ويمكن تمثيل نمو شخصية الطفل في صورة جدول تزداد مياهه غزارة كلما تعددت الروادف التي تصب مياهها في الجدول الأصلي .

وقد حاول بعض علماء النفس تصوير مجموعة هذه التيارات المختلفة التي تشترك في تكوين الشخصية مستعينين بما وصلت إليه البحوث المتفرقة من نتائج متممة بعضها لبعض . فهناك دراسات لنمو النشاط الحسي والحركي ، وغيرها لترقى قوة الإدراك والفهم والتعبير اللغوي ، ثم بحث النمو الوجداني وتكوين العواطف وكيفية ظهورها في المواقف الاجتماعية المختلفة التي يوجد فيها الطفل .

وقد انتهت المقارنة بين نمو هذه الوظائف المختلفة إلى كشف بعض قوانين عامة تفسر لنا سير النمو على العموم سواء كان حركياً أو عقلياً أو وجدانياً .

ومن أهم هذه المحاولات التي ترمى إلى التأليف بين نواحي النمو المختلفة وتنظيمها في نظام شامل واف محاولة العالمة النمساوية شارلوت بوهلر^(١) Charloté Bühler

مؤسسة مدرسة فيينا لدراسة الطفولة الأولى — ترى بوهلر أن مراحل نمو الطفل تمتاز بتعاقب نماذج من الوظائف والسلوك . فتمتاز المرحلة الأولى بكونها مرحلة الوظيفة البحتة ، أي العمل لمجرد العمل بدون نظام ولا قصد سوى العمل والنشاط . فالطفل يقبض على كل شيء يمكن تناوله فيجذبه أو يحركه أو يقذفه مكرراً الحركات مغتبطاً بما يحدثه من أثر دون مراعاة خصائص الأشياء التي يعالجها بيديه وفمه . ثم في أواخر السنة يأخذ الطفل يراعى بعض خصائص الأشياء مكيفاً حركاته تبعاً لها . وفي أواخر السنة الثانية يدرك الطفل أن في إمكانه أن يبتدع وأن يأتي بأعمال جديدة وأن يغير من نمط سلوكه .

وتتطور العلاقات بينه وبين الأشخاص الآخرين تبعاً للمنهج عينه . فيمر بمرحلة الصلة الاجتماعية غير المعينة حيث يكون التمييز بين الأفراد ضعيفاً جداً غير ثابت ، فقد يحل فرد محل الآخر في عنايته بالطفل دون أن يدرك الطفل هذا التغير . ثم تأتي مرحلة الصلة الاجتماعية المعينة حيث يراعى فيها الطفل ما يميز بين الأشخاص من صفات خاصة . ومقدرة الطفل على الإبداع والخلق تظهر في المجال الاجتماعي باندماج الطفل في جماعة وفيما يتخذ اللعب عنده من صور جديدة . وفي خلال هذا التطور الاجتماعي تتضح مظاهر الغيرة والمشاركة الوجدانية والتعاطف فتساعد الطفل على إدراك ذاته بعض الشيء وما يميزها عن الأشخاص الآخرين . ففي أواخر السنة الثالثة أو في بداية الرابعة يحدث ما يسميه علماء النفس بأزمة الشخصية الأولى حيث يحل التأليف بين نواحي الشخصية من وجدانية وعقلية محل التشتت وعدم التكامل . ويتماز هذا الطور الأول الذي ينتهي عند السنة الخامسة بتركيز وجدانيات الطفل وأحكامه ومظاهر سلوكه حول ذاته .

ومن السنة السادسة حتى العاشرة تضعف النزعة الذاتية ويأخذ الطفل يهتم بالعالم الخارجي من حيث هو موضوع أو شيء مميز عن نفسه . تلك هي المرحلة الواقعية أو الموضوعية التي تتكون خلالها معاني الواجب والاحترام والتعاون مع الآخرين . أما في سن المراهقة فتعود النزعة الذاتية إلى التغلب وتنشأ ضروب جديدة من الصراع بين المراهق ونفسه وبينه وبين البيئة العائلية والاجتماعية . وقد وضحت عالمة أخرى تدعى أبرامسون^(١) Jadwiga Abramson مراحل نمو الشخصية خاصة من الوجهة الوجدانية والخلقية . فقد قسمت سنى الطفولة والمراهقة إلى أربع مراحل :

١ — مرحلة الذاتية البهجة من الولادة إلى نهاية السنة الثانية^(٢) . وتمتاز

J. Abramson. L'enfant et l'adolescent instables. Alcan, (١) Paris, 1940

(٢) يجب أن نلاحظ أن الحدود الزمانية التي يذكرها المؤلفون هي حدود متوسطة لا تنطبق على جميع الأطفال . فهناك على جانبي الحالات المتوسطة حالات تقدم وخاصة حالات تأخر .

بالنشاط الوظيفي البحت والاندفاعية وعدم القدرة على تصميم الفعل الإرادى وأخيراً بضعف التمييز بين الحدود التى تفصل الطفل عن الوسط الذى يحيط به . فكل مظاهر النشاط صادرة عن المركز دون أن تنعكس عليه ، أى أن مجال الروية والتبصر والتمييز فى اختيار نوع الاستجابة ضيق جداً .

٢ — مرحلة المعارضة السابقة لفهم نظم التهذيب من السنة الثالثة حتى السادسة وهى تعرف أيضاً بمرحلة أزمة الشخصية الأولى أو تكوين الشعور الذاتى . وتبدأ بعد اكتمال أجهزة الإدراك والتعبير الانفعالى واللغوى .

ومن أهم العوامل التى تؤدى إلى ظهور الأزمة النفسية اصطدام إرادة الطفل الناشئة بإرادة البالغين الذين يحاولون تدريب الطفل على النظام وحمله على التبصر . فبصد هذه المواقف الجديدة يكون الطفل أول الأمر عاجزاً عن تحقيق التكيف والتوافق ، فيمر بحالات خوف ودهشة تعقبها محاولة الطفل الخضوع للنظام المفروض عليه . وبهذه الكيفية تقوى إرادة الطفل رويداً رويداً وتزيد قدرته على الكف وضبط النفس . ويلاحظ فى أثناء هذه المرحلة إبطاء النمو العقلى وركوده .

٣ — مرحلة غزو العالم الخارجى من السنة السادسة حتى الثانية عشرة . تمتاز هذه المرحلة بظهور اهتمام الطفل بالأشياء الخارجية من حيث هى موضوعات متميزة منه ، مستقلة عنه . وإذ أن الأغراض والغايات التى يرمى الطفل إلى تحقيقها تكون مطابقة إلى حد كبير لما ينتظره منه الأهل والمربون فإنه لا يلبث أن يتشرب بروح التعاون وأن يفهم معنى الواجب وضرورة النظم الاجتماعية والخلقية . ويتحقق التوازن بين النزعات الذاتية والنزعات الموضوعية أو بين ما يسميه فرويد بمبدأ اللذة ومبدأ الواقع . ويبدو كأن جميع قوى الطفل الوجدانية تضع نفسها فى خدمة نواحي الشخصية الأخرى كنمو الاستعدادات العقلية والفكرية وفهم الأوامر والنصائح والتوجيهات التى ترمى إلى تقويمه الاجتماعى والخلقى . ويتعلم الطفل كيف يهتم بما يدور حوله وملاحظته بعناية وكيف يجمع نزواته ورغبته فى اللعب لى يشترك فيما

يفعله الآخرون . وفي نهاية الأمر تقوى فيه القدرة على المثابرة ومواصلة الجهد حتى الوصول إلى النتيجة المرجوة قبل الشروع في عمل آخر .

٤ — مرحلة معارضة النظام وثورة النفس على القيود الاجتماعية في سن المراهقة .
في هذه المرحلة الأخيرة التي تنتهى حوالى السابعة عشرة تغلب النزعة الذاتية من جديد ويميل المراهق إلى الانطواء على نفسه والتمتع بما يتدفق في ذهنه من الأخيلة والأحلام فيقطع صلته قدر المستطاع بشؤون العالم الخارجى وبما قد يوحى به إليه من اهتمامات موضوعية . وتكتسح نفس المراهق عاصفة من الثورة ضد القيود والضوابط ، وتمتاز هذه المرحلة بالأمور الخمسة الآتية : الصراع الجنسى وما يثيره من مشكلات ، إثبات الذات وروح الثورة ، صراع بين جيلين ، معضلات دينية وفلسفية وأخيراً الصراع العنيف بين المراهق والنظم الاجتماعية .

ولاشك في أن عنف هذه الضروب المختلفة من الصراع تتفاوت تبعاً للبيئة الاجتماعية ومدى القيود والضوابط المفروضة على المراهق . فقد لوحظ مثلاً في بعض الشعوب البدائية حيث تكون العلاقات الاجتماعية بسيطة عدم ظهور هذه الضروب من الصراع العنيف الذى يشاهد في الأوساط المتحضرة ، خاصة خلال حالات خاصة من التطور الاجتماعى السريع .

ومهما يكن من أمر تأثير المجتمع في بعث الصراع واحتدامه فلا شك في أن مرحلة المراهقة لا تمر بدون صعوبات وتجارب مؤلمة للمراهق نفسه ولمن يحيطون به . فهى مرحلة شبيهة إلى حد ما بالمرحلة الثانية ، إذ فيها تحدث أزمة الشخصية الثانية التي تؤدي إلى غزو الذات وكشف قدسياتها والإسراف في التأمل الذاتى .

Résumé

YOUSSEF MOURAD - Le développement mental de l'enfant et la formation de sa personnalité.

Cet article traite des 4 questions suivantes : 1⁰ Importance de l'étude de l'enfance 2⁰ Le développement mental et l'acquisition du langage - 3⁰ Etapes du développement de la sexualité 4⁰ Etapes de la formation de la personnalité.